حكايات أندلسية للأطفال

1

المخترع الصغير

بقلم
دكتور حسين مؤنس

رسوم
عمرو أمين

دار الرشاد

obeikandl.com

* وقعتْ حوادثُ هذه القصّة الحقيقيّة مُنذُ أكثر من ألف سنَة .. فى القرنِ الثّالثِ الهجْرِىِّ ، الذى يُقابلُ القرن التاسعَ الميلادىَّ ..

فى مدينة «قُرْطُبَةَ» الجَميلة ، عاصمة الأندلسِ ذاتِ الحَضارةِ الزّاهرةِ فى تلكَ الأيّام ..

* فى تلكَ الأيّام .. اشْتَهرتْ «قُرْطُبَةُ» بعَملِ المصاحف الفاخرة المكتُوبَة على وَرَق عَربىٍّ مُمتاز .. ولم تكُن آلاتُ الطِّباعة قد اختُرِعَتْ فى ذلك الوقت .. ولم يكُن هُناكَ مطابع .. ولكى يَصنَعَ الناس مُصْحفاً ، كانَ النّاسخُ يَقومُ بكتابة نَصِّ القُرآنِ الكَريمِ بخطِّ اليَد كتابةً دقيقةً مُتْقَنَةً .. باستعمال أقلامٍ من البُوص لَها سنٌّ مُدَبَّب .. يُسَمُّونَها «أقلامَ البَسْط» وأسنانُها لَها ثَلاثةُ أَحْجَامٍ : عريضة .. ومتوسطة .. ورفيعة .. عَريضةً .. يُكتَبُ بها خَطُّ «الثُّلُث» .. ومعناهُ ثُلثُ عَرْضِ الإصبعِ السَّبّابَة .. مُتَوسِّطَة .. وعرض السِّنِّ فيها نصفُ عَرْضِ الثُّلُث ويُكتَبُ بِه خَطُّ «النَّسْخ» .. ويُستَعْمَلُ فى نَسْخِ أى كتابة من الكُتُب.

ـ رَفيعة .. وكانُوا يَكْتُبون بها « الرِّقاعَ » وهى الرَّسائلُ والخطابات .. « والرِّقاعُ » جَمْعُ « رُقْعَة » ، ولذلك سُمِّىَ هذا الخَطّ : خَطَّ « الرُّقْعَة » ..

* وبعدَ كتابة المصحَف تتمُّ مُراجعَتُه مرَّات كثيرة .. حتَّى يتأكَّدوا من أن الكتابةَ غَايَةٌ فى الدِّقَّة .. كَلمةً كَلمَة .. وحَرْفاً حَرفاً .. ثمّ تُؤخَذُ الصَّفحاتُ وتُثَبَّتُ بالخيط على الجَانب الأيْمَن ، ويُصنَعُ لَها غلافٌ منَ الجلْد .. يُزَيَّنُ برُسوم وزَخارفَ إسلاميّة بَديعة عن طريق الضَّغط بحَديد ساخن .. وقد تُستَعْمَلُ الزَّخارفُ المُذَهَّبةُ فى الغلاف وبعض الصَّفحات الدّاخلية .

لكلِّ هذا كانَ عَمَلُ المُصحف الواحد يَسْتَغْرِقُ وقتاً طَويلاً .

فى تلك المدينَة الجَميلَة ـ قُرْطُبَة ـ مُنْذُ أكْثَرَ منْ ألف سَنة كانَ يَعيشُ غُلامٌ صَغير اسمُه (**عباس بنُ فِرْناس**) ..

كانَ وَلَداً لَطيفاً ذَكيّاً فى التّاسعَة منْ عُمْره .. وكانَ يُحبُّ القراءةَ والتَّأمُّلَ فى بَديعِ خَلْق الله سُبْحانَهُ وتَعالى ..

كانَ قد أتَمَّ حفْظَ القُرآن الكَريم ، وبَدأَ يَدْرُسُ التَّفْسيرَ واللُّغَةَ والأدَب ..

كانَ أبُوهُ من كبار مُوظَّفى الدَّوْلَة .. ولكنَّ عَمَّهُ عبدَ الرَّحمن كانَ « **كُتُبِيّاً** » .. لَهُ دُكَّانٌ كَبير .. يَبيعُ فيه الكُتُبَ إلى جوار جامع قُرْطُبَة ..

وكان عبَّاس يُحبُّ عَمَّه ، ويَقْضى عنْدَهُ فى الدُّكَّان مُعْظَمَ اليوم ، يَقْرأُ دُروسَهُ على شَيْخه .. ويَقْضى بَقيَّةَ وقته فى مُطالَعة الكُتُب ، والاسْتماع إلى أحاديث العلْم والأدب الّتى كانَتْ تَدُورُ بَيْنَ عمِّه عبد الرَّحمن وضُيوفه الكَثيرين .

وذاتَ يَومٍ ، وبَيْنما كانَ عبّاس يَقرأُ فى رُكنٍ من أركانِ الدُّكان ، جاءَ إلى عمِّه صَديقٌ من أصدقائه ـ من بلاد المغْرب ـ وقالَ لَه :

ـ أُريدُ منْكَ عَشرَةَ مَصاحفَ فاخِرةٍ جَميلةِ الخَطِّ والتَّجْليد .

فقالَ العَمُّ :

ـ بكُلِّ سُرور ، ومتَى تُريدُها إنْ شاءَ الله ؟

ـ أُريدُها فى خلال شَهْرَيْن .

ـ هذا مُسْتَحيلٌ .. لأنَّ المصْحَفَ الواحِدَ يَحتاجُ نَسْخُهُ وتَجْليدُهُ ثَلاثَةَ أَشْهُرٍ .

ـ سَأدْفَعُ لَكَ ما تُريدُ ، لأنَّنى أُريدُ هذه المصاحفَ لِبَعْضِ عُملائى من مُلوكِ بلاد السُّودان المسْلمين .

ـ أقولُ لكَ إنَّ إنْجازَ هذه المصاحف فى الوَقْتِ الذى تَطلُبُه مُسْتَحيل .

ـ إذَنْ .. هل أَذْهَبُ إلى « كُتْبىٍّ » آخَر ؟

ـ لن يَسْتَطيعَ أىُّ « كُتْبىٍّ » آخَرَ أن يُنْجزَ المصاحفَ العَشَرَةَ فى هذه المُدَّة

وكان عبّاس الصَّغير يُصْغى إلى هَذا الحَديثِ .. وفكَّرَ فيما سَمِع :

هذه عَمَليَّةٌ سيَكسبُ مِنْها عمُّه كَثيراً ..

وستُحقِّقُ للصَّديقِ القادمِ من المغربِ فُرصةَ تحقيقِ رَغْبةِ مُلوكِ السُّودان وهى أيضاً تُساعدُ على نَشْرِ كتابِ اللهِ الكَريمِ ، وتَوْصيلِه إلى مَنْ يُريدُونَ قراءَتَهُ . كُلُّ هذا جَميلٌ .. ولكنَّ الوقتَ ضيِّق .. فَما العَملُ .. ؟

هذه مُشكلة .. هل يُوجَدُ لَها من حَلّ .. ؟

فكَّرَ عبّاس الصَّغير .. ثمَّ تَوَصَّلَ إلى فِكْرة .. فأقبل على عمِّهِ وقال :

ـ هل أستَطيعُ أنْ أَقُولَ شَيْئاً .. ؟

وكان عمُّه يُحبُّه فابتَسَمَ وقال :

ـ ماذا تُريدُ أن تَقُولَ يا عبّاس ؟

ـ أُريدُ أن أَقُولَ يا عمِّى إنَّنا نَستَطيعُ إنجازَ هذه المصاحفِ العَشرةِ فى شَهْرَين .

ـ ولكنْ كَيفَ يا عبّاس ؟ إن النَّسَّاخَ يَحتاجُ شَهْرَيْنِ لإنْجَازِ مُصْحَفٍ واحد .. !!

ـ سَنُنْجزُها لَهُ إنْ شَاءَ الله ، فاتَّفقْ معَ هذا الرَّجُلِ الطَّيِّب .. وسَأقولُ لكَ ـ فيما بَعْد ـ كَيْفَ نفى بِوَعْدِنَا . .

فقالَ العمّ :

ـ هل أَنْتَ واثقٌ ممَّا تَقُولُ يا عبَّاس ؟ إننى لا أَسْتَطِيعُ أن أَعِدَ صَدِيقِى هذا بِشَيْءٍ إلاَّ إذَا كُنتُ واثقاً منْ قُدْرتنا على الوَفاء .

ـ لقد فكَّرْتُ فى الموضوعِ جيِّداً .. فكُنْ واثقاً يا عمِّى أنَّكَ ستَفِى بِوَعْدِكَ .

فقال الرَّجُلُ (**لِعبَّاس**) :

ـ والله لو كُنْتَ صادقاً يا عبَّاس ... فإن لَكَ عِنْدِى مُكافَأَةً عَظِيمَة .. لأنَّ مُلوكَ السُّودانِ يَنتَظِرون المصاحفَ بفارِغِ الصَّبر ..

ثم قال للشَّيخِ عبدِ الرَّحمنِ عمِّ عبَّاس :

ـ لقد تَعَوَّدْتُ أن أدْفَعَ فى المصحَفِ الواحِدِ، المجلَّدِ تَجْليداً فاخِراً مُزَخْرَفاً بالذَّهب ، عشْرِينَ ديناراً .. وهَذِهِ المرَّةُ أدفَعُ فى الواحِدِ خَمْسةً وعشرينَ ديناراً إنْ وفَّيْتُمْ لِى بِوَعْدِكُم وأَعْطَيْتُمونِى المصاحِفَ كامِلَةً فى شَهْرَين .

فقالَ عبَّاس :

ـ على بَرَكَةِ الله ..

وبعد أن ذَهَبَ التَّاجرُ .. قالَ العمُّ لعبّاس :

ـ كَيْفَ سَنُنْجزُ هذا العَملَ يا عبَّاس ؟

فقالَ عبَّاس :

ـ اسمَعْ يا عـمِّى ، لقد خَطَرَ ببَـالى أنَّنا بَدَلاً من أن نُكَلِّفَ النَّسَّاخَ بعَـمَل نُسْخَة مـنَ المصحَف الكَريم فى بَيْته ، نَسْتَدْعى هُنَا عَـشَرَةَ نَسَّاخينَ .. ونُحْضرُ لَهُمُ الوَرَق والحـبْـرَ والأقـلامَ .. ويَجْلِسُـونَ فى صَفَّينِ فى القاعَـة الدَّاخليَّة منَ الدُّكّان ، وأمامَ كلٍّ منْهُم أوْراقُهُ وأَقـلامُهُ ومحْـبَرَتُهُ .. ونَضَعُ أمَـامَهُم سَـبُّورَةً على الحَـائط .. يَقفُ عندَها نَسَّـاخٌ يَكْتُبُ على السَّبُّورَة .. وأَقُومُ أنَا بالإملاء على النَّسَّاخينَ ويَقُـومُ النَّسَّـاخُ بكتـابَة نُصـوص الآيات على السَّبورة .. فَيَسْـمَعُ النَّسَّاخُـونَ بآذانهم ، ويَرَوْنَ بعُيونهم ، ويَكتُبونَ فى أوراقهم .. ويَعْمَلُونَ طُولَ اليَوم ، ونُقَدِّمُ لَهُم نَحْنُ هُنَا طَعَـامَ الغَدَاء .. ففكَّرَ العَمُّ طَويلاً ثمَّ قال :

ـ فكرةٌ عَظيمةٌ يا عبّاس .

ـ وأنا أتَعَهَّدُ لَكَ يا عمِّى بالـتَّنْفيذ.. وما عَلَيْكَ إلاَّ أن تَأتىَ بالنَّسّاخينَ والورقِ والمحـابرِ والسَّبُّورة .. وعلىَّ البَاقى ..

وبدأ التنفيذُ كما اقترحَ عبّاس .. واجتمعَ النسّاخُون .. وكتبوا المصاحفَ العشرةَ فى وقت واحد .. ثمَّ راجعُوها مُراجعَةً دقيقةً .. وقامَ العمُّ بتسليمِها كاملةً مُجلَّدةً مُذهّبةً .. فنظرَ التاجرُ إلى عبّاس .. وقال للعمِّ :

ـ إن ابنَ أخيكَ مُخترعٌ عظيم .. فاعتنِ به عنايةً عظيمةً .. واجتهدْ فى إكمال تعليمه ..

قال العمّ :

ـ إنَّ أكثرَ ما أعجبنى فى عبّاس .. أنَّهُ لم ييأسْ عندما قابلتْنا المشكلة .. وفكّرَ .. حتّى وصلَ إلى حلٍّ .. وكلُّ عُقدةٍ لها حلّ .. والعجيبُ أنَّهُ حلٌّ سهلٌ بسيطٌ .. يُمكنُ أن يُنفّذَهُ أىُّ إنسان .

قال التاجرُ :

ـ الحلُّ سهلٌ يستطيعُ أن يُنفّذَهُ أىُّ إنسان .. ولكن .. المُهمُّ أن يصلَ الإنسانُ إلى هذا الحلِّ السهل ..

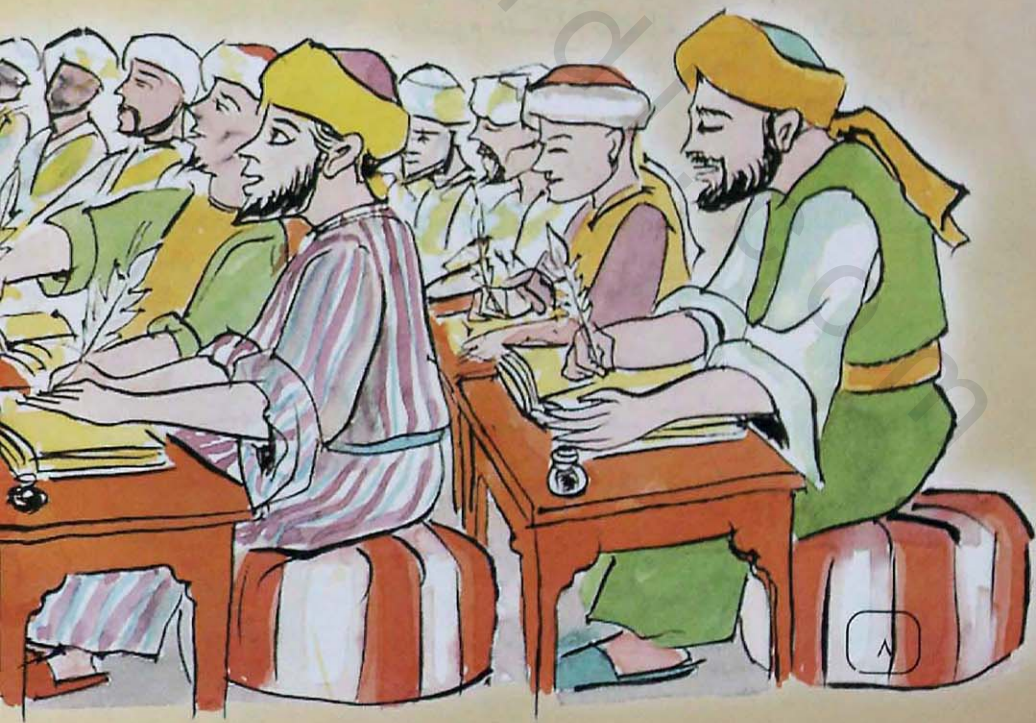

قال العَمُّ :

ـ صَحيح .. وهذه هى براعةُ المخْتَرعينَ والمفكِّرين .. الذينَ يَصلُونَ بالتَّفْكيرِ العَميقِ .. إلى الحُلولِ السَّهْلَةِ التى لا تَخْطُرُ على بالِ النَّاس ..

قالَ التَّاجر :

ـ وأنا من ناحيَتى سأُعْطى ابنَ أخيكَ عَشَرَةَ دَنانيرَ من عِنْدى .. مُكافَأةً لَهُ على إنجازِه هذا العملَ العَظيم .

ومنذ ذلكَ الحين .. اشتَهَرَ أمرُ (عبّاس بنِ فِرْناس) فى قُرْطُبَة .. وسمَّاهُ النّاسُ « المُخْتَرعَ الصَّغير » .

وَصَلَتْ إلى الأمير (عَبدِ الرَّحمنِ بن الحكم) أمير الأنْدَلُسِ نُسخٌ من تلكَ المصاحف الجَميلة التى أَخرَجَتْها مكتبةُ عبد الرحمن بن فِرْناسَ عمِّ عبّاس ، فأُعجبَ بها ، وزادَ إعجابُهُ عندما عَرَفَ أنَّ صاحبَ الفكْرَةِ غُلامٌ صَغيرٌ فَطَلَبَ أن يَرى هذا الغُلامَ .

وذَهبَ عبّاسٌ مع والدِه إلى القصرِ واستَقبَلَهُما الأميرِ ، وتَحدَّثَ مع عبّاسٍ فوجَدَهُ غُلامًا مُهَذَّبًا لَطيفًا ذَكيًا فقال لَهُ :

- يَظهرُ يا عبّاسُ أنَّكَ مَشغُولٌ بأمرِ هذهِ الابتكاراتِ .

فقال والدُهُ : أجَل والله يا مَوْلانا الأميرِ وهُوَ يُضَيِّعُ فى تَجاربِه وعَملِ الأدواتِ التى يَخترِعُها مُعظَمَ وَقْتِه .

فابتَسمَ الأميرُ ومَسحَ على رأسِ عبّاسٍ وقال :

- وهل ابْتَكَرْتَ شيئاً جديداً يا عبّاس ؟

- « ابْتَكَرْتُ شيئاً جَميلاً أرجو أن يَسُرَّكَ يا مولاى »

- وما هُوَ يا عبّاس ؟

- دِرْعٌ للعَصافير ! وهو اختراعٌ يَحْمِى العَصافيرَ الصَّغيرَةَ الجَميلَةَ من أذَى القِطَط والفِيرانِ التى تَتَسلَّقُ الأشجارَ وتأكُلُ أفْراخَها .. هل مولاى يُحِبُّ العَصافير ؟

ـ طبعاً أنا أُحبُّ العَصافيرَ ولَدَيْنَا فى حَدائقِ قَصْرِنا مِنْها الكَثِير ، ويُحْزِنُنى أن تَعْتَدِىَ علَيها القِطَطُ والفِيران ، وَبِودِّى لو رأيتُ دِرْعَ العُصفورِ الّذى ابتَكَرْتَهُ هذا .

فقالَ عبّاس : أنا سعيدٌ جداً يا مولاى أن أَعْرِفَ أنَّكَ تُحبُّ العَصافيرَ . ولهذا فإنَّنى أَسْتأذِنُكَ فى أن آتِى إلى القصرِ غداً ومَعِى نَمُوذَجٌ لهذا الدِّرْع .

وافَقَ الأميرُ ونَظرَ إلى عبّاسٍ نَظْرةَ إعجابٍ ومَحبَّة .

وفى اليَوْمِ التّالى ذَهبَ عبّاس مع والِدِهِ إلى القصرِ فوجَدَ الأميرَ يَتَمَشَّى فى الحَديقَة .

ووضَعَ عباسٌ الجِهازَ الذى اخْتَرَعَهُ على منضدةٍ من الرّخامِ فى الحَديقةِ وأخذَ يَشْرَحُهُ للأمير . وكانَ هذا الجِهازُ مُكَوَّناً من قُرصٍ عَريضٍ مِنَ الخَشَبِ والنُّحاسِ فى وَسَطِهِ فَتْحَةٌ واسِعَة بحيثُ يُمكنُ لَفُّهُ حَوْلَ جِذْعِ الشَّجرةِ ..

والقُرْصُ مَقْسُومٌ إلى نِصْفَيْن .. وقامَ عباس بوَضْعِ نِصْفِ القُرْصِ حولَ جِذْعِ الشَّجَرةِ وقامَ بتَثْبِيتِه بمسامير صَغيرةٍ ثمَّ وَضَعَ النِّصْفَ الثّانِي وثَبَّتَهُ فاكْتَمَلَ قُرصٌ واسعٌ أعلى جِذْعِ الشَّجرة ، ثمّ زَادَ تَثْبِيتَهُ بحبالٍ تَشُدُّهُ إلى جِذْعِ الشَّجرةِ . وبعدَ أن فَرَغَ عباسٌ من تَثبيتِ دِرْعِ العَصافير .

قال للأمير :

ـ هذا القُرصُ مَعْدِنِيٌّ من أسفل وخَشَبِيٌّ من أعلى وهو يَمْنَعُ القِطَطَ من مُواصَلَةِ الصُّعودِ إلى أعلى الشَّجرة ، فإذا وَصَلَتْهُ وهى صَاعِدةٌ من أسفَلِه وجَدَتْهُ فوق رُءوسِهَا ولم تَسْتَطِع أن تَتَخَطَّاهُ فتَهْبِطَ يائسَة ، وكذلك الفيران .

وعلَينا أن نَقُومَ بفَرْشِ القَشِّ فوقَ هذا القُرْصِ ذى الحَافَّة العَريضَة لكى تَسْتَقِرَّ عَلَيه الطُّيورُ التى لا تَجِدُ أعْشَاشاً على غُصونِ الشَّجرة ، ولا بُدَّ بعد ذلك من شَدِّ القُرصِ إلى أعلى بحَمَّالات تُثَبَّتُ فى جِذْعِ الشَّجرةِ ، ثم نُغَطِّى هذه الحَمَّالاتِ بالقماشِ لِتَحْمِىَ العَصافيرَ وفراخَها منَ المطرِ والشَّمسِ .

فتأمَنَ من أخطارِ القِطَطِ والفيرانِ والشَّمسِ والمطَر . إنَّها دُروعٌ حَقيقيَّةٌ للعَصافير .

ثم قامَ عبّاس بتَثْبيتِ درْعِ العَصافيرِ بسُرعةٍ كَبيرةٍ ، والأميرُ يَتأمَّلُ ما يَعْمَلُ مسروراً وقال له : إنَّ هذا الدِّرْعَ مُبْتَكَرٌ . وهو يَحْمِي كذلكَ العَصافيرَ الصَّغيرةَ منَ الصَّقْرِ والحِدْأة .

ثمَّ قالَ الأميرُ لِوَالِدِ عبّاس :

ـ يا شَيْخُ فِرنَاس .. ابنُكَ هذا ذَكيٌّ مَوْهُوب ، وَأنا أُحِبُّ أن يُواصِلَ تَعْليمَهُ هُنا فى القَصْرِ مع أولادِنا ، لأنَّنِى أُريدُ أن يَنْفَعَ الأندَلُسَ بذَكائه ..

ووَافَقَ والدُ عبّاس ، وشكرَ الأميرَ .. واتَّفَقَ مَعَهُ على أن يأتِىَ عبَّاسٌ كلَّ يَوْمٍ إلى القَصْرِ ، لِيَتَعَلَّمَ فى مدرَسَتِه ، وكان قَاضِى القُضاةِ حاضراً هذا المجْلسَ فقال :

ـ وسأتخيَّرُ لَهُ بنفسي مَنْ يُعلِّمُهُ عُلومَ الدِّينِ واللُّغَةِ والأدبِ ويتولَّى رِعايَتَهُ .

فقال الأمير :

ـ هُوَ أمانَةٌ عندكَ يا قاضي القُضاةِ علِّمْهُ ما تشاء ، ولكنْ أرْجُو أن تُحافظُوا على صَفاءِ ذهْنه ومَيْلِه إلى العُلومِ والاختِراعَات . هذا الغُلامُ عندَما يَلْعَبُ فهُوَ يَدْرُسُ ويُفكِّرُ ويبتكرُ ، فَدَعُوهُ على حُرِّيَّتِه ، ولا تُضيِّعُوا عَلَيْنَا مَوْهِبَتَهُ العلْميَّةَ العَظيمَة ، ومَيْلَهُ إلى الابتكار .. هيَّا يا عبَّاس .. أرِني همَّتَكَ، ودَعْنِي أسْمَعْ عَنْكَ أخباراً طَيِّبَةً ، وإذا أرَدْتَ أن تُقابِلَني فتَعالَ إلَيَّ دُونَ حَرَجٍ .

وتلكَ كانتْ نُقْطَةَ البِدايةِ الَّتي بدأ منْها عَبَّاسُ بنُ فِرناسَ في كتابة صفحاتٍ مجيدةٍ مِن تاريخِ العلْمِ والاخْتراعِ عندَ العَرَبِ .

الناشـــــر : **دار الرشـاد**
العنـــــوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
تليفـــــون : ٣٩٣٤٦٠٥
رقم الإيداع : ٥٦٠٠ / ٩٧
الترقيم الدولى : 0 - 44 - 5324 - 977
تجهيزات وطبع : **عربية للطباعة والنشر**
العنـــــوان : ١٠٧ ش السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفـــــون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣
الجمـــــع : **آمس للكمبيوتر**
العنـــــوان : ٣٢ شارع عبد اللطيف مجلس الأمة
تليفـــــون : ٧٩٦٤٤٠٤

جميع حقوق الضبع والنشر محفوظة

الطبعة الثانية : ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧م (الأولى للدار)
الطبعة الثالثة : ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥م (الثانية للدار)

obeikandl.com